من المجموعة القصصيَّة «أطفال تحت خطِّ النَّار»

كُرَتِي الغَالِيَة

قصة قصيرة

د. محمد عبد اللطيف

كُرَتِي الغالِيَة

قصَّة قصيرة، من السلسلة القصصِيَّة «أطفال تحت خطِّ النار»

د. محمد عبد اللطيف

رابطة الأقلام الشابة

مساحة ١٤.٨ × ٢١ سم

عدد الصفحات: ٢٠ صفحة

رقم الإيداع: ١١٠٢/ ١٤٤١/ ١١/ ٢٠

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رابطة الأقلام الشابة

للتواصل والاقتراحات

mo.a.latif@yandex.com

كُرَتِي الغالِيَة

هبَّتْ رياحٌ حارَّةٌ في هذا الوقتِ من العام، ولا تكادُ الشمسُ تتزَحزح قَيْد أُنمُلَةٍ عن رؤوسنا، ولا أدري ما سبب إصرارها على تعامُدِها على أقفيَتِنا التي أمسَتْ سودَاء محترِقة، وأُمَّهات رؤوسِنا التي غَدَت ثقيلةً بليدَة.. أتُرَاها عِقَابَ الرَّبِّ على ما اقترفَتْه أيادينا السوداء على أرضِه؟! أمْ أنَّه أرسَلَها ليُخَفِّفَ عنَّا من حرِّهَا وجحِيمِها إذَا ما صِرنا يومًا إليْه كما يقولُ لنا الأبُ «ماندينكا»؟! أمْ أنَّ الرَّبَّ لا علاقةَ له بما يحدُث؟!..

على كلِّ حالٍ لمْ تكُنِ الشمسُ فقط هي التي نعاني من قسوتها واستبدادها، فلكلِّ شيء حولنا نصيبٌ وافر من القسوة والاستبداد؛ الهواء حارٌّ طوال العام، وكأنَّه يهُبُّ علينا من شَرْقِيّ جهَنَّم، فإلى الشرق من بلادنا «ليبيريا» تقع جهنَّم التي يعَذِّب فيها الربُّ عبادَه الآثِمِين، هكذا أخبرنا المعَلِّم «بورجا».. تقول جدَّتِي أرضُنا خصبَة، ولكنها لا تُنْبِتُ خيرًا، فالأرضُ تخشى أن تُنْبِتَ الزروع والثمار، وقد حدَثَ ذات مرَّةٍ أو مرَّتَيْن أنْ جَسُرَت الأرضُ على إنبات البطاطا الحُلوَة – التي أُحِبُّها كثيرًا،

ولا تسنَحُ لي الفرصةُ لأكلِها إلَّا في الأعياد، كاليوم- فأرسَلَتِ الشمسُ عليها ألسنةً مِن نارٍ فأحرقتِ الثمار وسَوَّدَتْ وجهَ الأرض، وعاقب الله المزارعينَ حينها بأنْ أرسلهم إلى جهنَّم إلى جهةِ الشَّرقِ.. وأتذَكَّرُ المُحتَرَم «ريموني» حاكم مدينتنا عندما وقف وسطَ السَّاحة التي تُوَاجه الكنيسةَ القديمةَ، حيثُ أخذ يصيح ويتوعَّد الحاضرين من المزارعين بأنَّ من يجرأ على زراعة المحاصيل من غير إذنٍ فيُحْرَق محصولُه ويُنْفَى إلى جهنَّم.. المحترم «ريموني» رجلٌ طيِّبٌ ومُخْلِصٌ فيما أرى، فهو يحذِّر الناس ممَّا قد يوقِعهم في السوء ويُلْحِقُ بهم الأذى..

فقط الغابات أُذِنَ لها في التكاثر والنُّمُوِّ، فليس مِن رادِعٍ لها يمنعها من الزحف المستمر على حدود القرية التي نسكُنُها.. أخبرني صديق لي يكبُرُنِي بعامٍ واحدٍ، ذات مرَّة أنَّ والدَه أخبره بأنَّ تلك الغابات يسكنها أناسٌ أشرار، يعملون لدى الرَّبِّ، وهم الذين يبعثون بالناس إلى جهنَّم في الشرقِ مِنَّا، يأتون إلى قريتنا كثيرًا فيقوم المحتَرم «ريموني» بتسليم العصاة إليهم، فيبعثون بهم إلى جهنَّم، وقد يقتلون بعض أولئك العصاة قبل أن يرِدُوها شفقةً بهم من العذاب في أوديتها المُحْرِقة..

أثارت تلك الرياح التي هبَّت الغبار والرمال الناعمة الحمراء، فدخلت في عيوننا، فأخذْتُ أنا والأطفال من حولِي نفرُك أعيُنَنا، بينما لم يجرؤ أحدٌ منَّا على التحرُّك والانتقال مِن محِلِّه إلى آخر، خشيَةَ أنْ يرسلَه هذا الرجُلُ الرائح والغادي أمامنَا إلى جهَنَّم.. كانَ أحدَ العاملين لدَى الرَّب، وكان يرتدي كغيره سُتْرَةً وسروالًا بهما العديد من الألوان الخضراء والسوداء والبُنِّيَّة، ويلبَس في قدمَيْه حذاءً ضخمًا، لو أنَّه وطَأَ أحدَنا به لقتلَهُ على الفَور، كما فَعَل أحدُهُم العامَ الماضِي بالعَمِّ «فوينجاما»، عندما تلكَّأ الأخير في ردِّ أموالٍ كانَت عليه، للرَّبِّ أو لهؤلاء الرجال، لا أدري..

اليومَ كما قيل لي هو «يوم الاستقلال»، أو كما يُطلِق عليه المحتَرَم «ريموني» «يومُ الحُرِّيَّة».. لا أدري حقيقةً معنى تلك الكلمة التي دائمًا يلوكونها بألسنتهم، فإنْ كان لها ثمَّ مذاقٌ أو معنًى فقد فقَدَتْ كلَيْهِما من كثرة ما ألِفَتْها آذانُنا، فأمسينَا لا نؤمِن بها ولا نلقِي لها بالًا، حتَّى من قبل أن نعرف معناها.. أخبرنا المُعَلِّم «بورجا» ذات مرَّة أثناء جلوسنا في الغرفة التي صُنِعَت من الخُوص من أجل تعليمنا أمورًا تنفعنا، أنَّ كلمة

الحرِّيَّة تعنى أن تفعل ما تريد في الوقت الذي تريد على النحو الذي تريد.. أحسستُ حينها أنَّ المعلم «بورجا» ليس كما يقولون، وأنَّه أحمق لا يعرف معنى ما يقول!!.. فأنا لمْ أرَ أحدًا يمارس حياتَه أو جزءًا منها انطلاقًا من هذا المفهوم المُبْهَم.. حتَّى المُعَلِّم «بورجا» نفسُه لا يفعل ذلك، فقد رأيتُ ذات مرَّةٍ أحد هؤلاء الرجال الأشرار يصفعُه على وجهه مِرَارًا، مُوَجِّهًا إليه الشتائم لأنَّه فعلَ أمرًا مَّا، حَسِبَ أنَّه حُرٌّ في فِعله، وكاد حينها أن يقتله بتلك البندقيَّة التي لا تفارق أياديهم، حتَّى أنَّك لَتحسَب أنَّها جزءٌ من أجسادهم!!، إلَّا أنَّ زوجة المُعَلِّم «بورجا» السيدة «تيموثي» ألقَت بنفسها عليه وراحت تصرخُ وتستجدي هذا الرجلَ الشرير ومن أتى معه من الغابة أن يدَعُوا زوجَها وشأنه، واعدَةً إيَّاهم أنَّه لن يعود إلى مثل هذا الصَّنيع مرَّة أخرى إلَّا بعد أخذ مباركتِهم أوَّلًا.. حينها أخذُوا يتضاحكون ويتَنَدَّرُون على المُعَلِّم وزوجِه، ثمَّ بَصَقُوا عليهما وتركوهما ومَضَوْا..

لا أدري، هل تلك الحُرِّيَّة التي يصفونها مفقودة على الحقيقة، وأنَّهم يدَّعُون وجودَها؟ أم أنَّ حداثَةَ سِنِّي تحُول بينِي وبينَ فهمِ ما يَرمُون

إلَيْه؟!!.. ولَكِنِّي لَم أعُد صغيرًا، فأنا ابنُ سَبْعٍ، وسَبع سنين كافية لأدركَ كلَّ شيء.. إنَّما الحُرِّيَّة التي لا أعرف غيرها هي حُرِّيَّة المرض، حُرِّيَّة الفقر، حُرِّيَّة الجوع، حُرِّيَّة الفقر، حُرِّيَّة القهر.. تلك هي الأمور التي نفعلها بحُرِّيَّة تامَّةٍ من غير أن يلومَنا أحدٌ على فعلها أو الإغراق فيها، بل أكاد أزعُمُ أنَّ الجِنرال «تاموري» زعيم الرجال الأشرار والمحتَرَم «ريموني» يشَجِّعُون على هذا النَّوع من الحُرِّيَّات كثيرًا، ويدعمُونَه، ويساعدون على انتشاره بين الناس.. أنا عن نفسي قد اختبَرتُ تلك الأنواع جميعَها، بل إنَّ أمِّي قَضَتْ بعد أن مارَسَتْ حُرِّيَّةَ المَرَض إلى حُدُودٍ مُتَطَرِّفة، لم تستَطِع عندها التَّحكُّم في تلك الحُرِّيَّة، فدفعَتْ برُوحها ثمَنَ حُرِّيَّتَها الزائدة، هكذا قال كبير الأطبَّاء «سوركيتا» عن والدتي وعن غيرها ممَّنْ قَضَوْا في قريتِنا، وكذا في القُرَى المجاورة.

تحَسَّسْتُ جَيْب سروالي، الذي لم أكُن أرتَدِي غيرَه، لأطمئِنَّ على كُرَتي الصغيرة، التي أودعتُها إيَّاه.. إنَّ امتلاكي لتلك الكُرَةِ يغمُرُنِي بالسعادة ويَملَؤُوني بالفَخر؛ فلم يكن من أحدٍ من الأطفال مَن يملك مثلها.. وجدتُها في كيس حلوى، أعطانيه رجلٌ أبيض جاء لتَفَقُّدِ كنيسة

قريتنا الصغيرة، قبل عامَيْن.. وإلى الآن لا أزال أشعر بحلاوة تلك الحلوى في فمي، كيف لي أن أنساها وأنا لم أتذَوَّق شيئًا مثلها قطُّ!!.. ومنذئذ وكُرتِي الغالية لا تفارق يدي ولا جَيْبِي ولا قلبي ولا عقلي، وكم ودَدْتُ لو أنَّ لي سُتْرَةً ذات جَيْبٍ لكي أحتفظ بتلك الكُرة إلى جانب قلبي، أُشْعِرُها بالأمان وتُشْعِرُني بالسعادة والفخر..

حاولَت أختي التي تكبُرُني بعامٍ واحدٍ أن تسلُبَنِي إيَّاها، بزَعْم أنَّ لونها البرتقالي لا يصلح للفِتْيَة، وإنَّما هو للفتيات فحسب!!.. إنَّها بلهاء، من قال لها بأنَّ هذا اللون لا يصلح للفِتْيَة؟! بل إنَّها لا تمتلك أيَّ شيءٍ بمثل هذا اللون.. إذا ما عادَتْ تلك الحمقاء لمقالتها تلك سأجيبها بأنني سوف أُجَرِّدُها من ممتلكاتها التي لا تصلحُ ألوانها - بِزَعْمِي- للفتيات.

لم آذَنْ لأحدٍ أن يشاركني اللعب بكُرَتِي تلك من قبل، فكيف آذَنُ لأحدٍ باللعب بمُضْغَةٍ من جسَدِي، إذَا ما أفسدَها أو فقدَها آلَ أمري إلى ما آلَتْ إليه من الفساد أو الفَقْد!!.. بل لا ينبغي لي أن أترُكَها بين يَدَي غيري يعبثُ بها أو يُتْلِفُها أو يغصبُها، هي لِي، ولي فقط..

وعلى الرغم من هذا فإنَّني لست أنانيًّا أيضًا، إنَّما تمَسُّكِي بكُرَتِي

وحرصِي الشديد عليها إنَّما يرجِع إلَى أنَّها هي مصدر البهجَة الوحيد في حياتي البائسة تلك، وعلى الرُّغْم من أنَّني لم أتجاوز السابعةَ بعد إلَّا أنَّ ما تراه عَيْنَيَّ مِمَّا أُدْرِكُه أنَّه كلَّما تقدَّم المرءُ في العُمُر ازداد بؤسًا وشقاءً، على الأقل هذا ما أشعُرُ به عندما أنظر إلى المُعَلِّم «بورجا»، فليسَ كلُّ الناس كالمُحتَرَم «ريموني» أو الجِنِرال «تاموري» على كُلِّ حال.. عندما يشتَدُّ عودي وأحصُلُ على شيءٍ من الاستقلاليَّة كما يزعمون أنَّ بلادي حصلَت عليها، سأبتاع الكثير من تلك الحلوى؛ لأحصُل على المزيد من الكُرَات، وأجمعُ بقِيَّةَ ألوانها، وبعد أن أكتَفِي منها سأقوم بتوزيع ما يزيد على بقِيَّة الأطفال في قريتي؛ حتَّى تدخُل البهجةُ - التي أعرفُ أنَّها غائبةٌ عنهم- في قلوبهم، كما سَبَقتهم إلى قلبِي..

تحَسَّسْتُ جَيْبي مرَّةً أخرى، فاطمَأنَّ قلبي، وأحسَسْتُ بالنشوَةِ، ولم يَبْقَ لي لتحقيق سلامٍ داخلِيٍّ يملؤني إلَّا أن يزول ذلك الألم عن عَيْني جرَّاء دخول الأتربة التي أثارتها الرياح فيها، وأنْ أحصُلَ في هذا اليوم على حبَّةِ بطاطا حُلْوَة أو جزء منها.. لقد قال أحد الرجال الذين يعملون تحت إمرَةِ الجنِرال «تاموري» أنَّ من سيلزَم الصمت والهدوء ويكُفُّ

عن العبث والحَرَكة قد يحصُلُ على حبَّةٍ كاملة من البطاطا الحُلْوَة، وهذه فُرصةٌ لا تتكرَّر كثيرًا، ويجب عليَّ اقتناصها..

جلسَ الجميع على الأرض متجاورين، في هدوء، لا يُحَرِّك أحدٌ منهم ساكنًا، وكأنَّ على رؤوسهم الطَّير.. الكبار جميعهم يجلسون كالأصنام، لا تتحرَّك منهم جفونُهم ولا ما كان أخفَى، يدفعُهم إلى مثل ذلك الخوفُ والرَّهبةُ، والحُرِّيَّة، فهم يعرفون أنَّهم أحرارٌ في فعل ذلك!!.. أمَّا الصغار، فكان جميعهم مثلي، يجلسون في سكينةٍ رهبةً ورغبة، تتعلَّقُ عيوننا الصغيرة بتلك الوحوش الآدميَّة الرائحة والغادية من أمامنا، وتسترِقُ النظرات تُلْو الأخرى من آنٍ لآخر إلى العاملين بالخلف، والمنوط بهم إحضار سِلَال البطاطا الحُلوة توطئَةً لتوزيعها علينا، إذا ما كنَّا من الفائزين..

وخَزَني أحدُ الرُّفقاء عن يميني في خاصِرَتي، وأنا أتحَسَّسُ الكُرَةَ التي تبِيتُ في جيْبِي مُطْمَئِنَّةً آمِنةً من كلِّ سوء، التفَتُّ إليه، فإذا به أحدُ أقراني في فصل المُعَلِّم «بورجا»، همسَ لي بشيء لمْ أتبَيَّنْه، لم أُرِدْ أن ألتَفِتَ إليه، فهذه الالتفاته أو تلك الهمسة قد تُكَلِّفُني حبَّةَ البطاطا الحُلْوة إيَّاها، وإذا

ما وافَقَ ذلك غضبًا لدى أحد رجال الجِنِرال «تاموري» فقد يرسلونني إلى الجحيم، وليس من أحدٍ يدافع عنِّي أو يُسَائِلُهم ويحاسبُهم على ما يفعلونه؛ فهم رجالُ الرَّبِّ..

أصَرَّ «موجابي» على وخزي لمَرَّاتٍ، وأنا لا أكاد أتحرَّكُ، حتَّى فاضت بي سخافتُه، فنظرتُ إليه بطرف عينِي دون أن أُحَرِّك رأسي، وجَزَزْتُ على أسناني، وقلتُ له هامسًا: «ماذا تريد أيُّها الأحمق، دعني وشأني»، أجاب بهمسٍ حذِرًا: «دعني ألقي نظرةً على كُرَتِك». أحسَسْتُ حينها أنَّنِي بصددِ اعتداء على أملاكي، بل أثمن ما أمْلُك، أجَبْتُه بذات الهمس: «إنَّها ليسَت معي الآن»، ردَّ متَصنِّعًا ذكاءً لا يمتلِكُه: «أتخدَعُنِي؟! منذ متى وأنت تتركها؟ إنَّك تصطحبها معك في كلِّ مكانٍ، حتَّى أثناء مسح مؤخِّرتك بورق شجر الهيفيا بعد قضائك للحاجة، على كلِّ حال قد رأيتُك تتحسَّسُ جَيْبَك أكثر من عشر مرَّات، دعني أراها فقط».

حاولتُ تجاهله، ولكَّنُه واصلَ إصراره المقيت، وأخذْتُ أُفَكِّر وأزِنُ الأُمور، هل أُصِرُّ أنا الآخر على عدم إبدائها له، وأُخاطر بأن يرانا أحد

رجال الجِنِرال «تاموري» نتهامس فيحرمنا من حِصَّتنا من البطاطا الحُلْوَة؟ أم أجعلُه يراها لثانيةٍ، علَّه يهدأ ويَكُفُّ عن إلحاحه السَّمِج هذا، وأعِيدهَا سالِمةً آمِنةً إلى جيبِي مرَّةً أخرى؟!..

قاطَعتْ أفكاري تلك وخزةٌ من أُصْبُعه في خاصِرَتي، وهمسةٌ في أُذُني، كِدْتُ ألتَفِتُ على إثْرِها إليه، غير أنَّني تماسكْتُ، وقلتُ له بهمسٍ غاضبٍ: «حسنًا حسنًا، سأُرِيَك إيَّاها، ولكن لثانية واحدة، لا تلمَسْها»، همَسَ بلهفةٍ: «اطمَئِن، فقط سأُلْقي نظرةً عليها»..

تحسَّسْتُها أوَّلًا، ثمَّ مدَدْتُ يدي وأدخلتها في جيبي، والتقطْتُها بخِفَّةٍ، وأخرجتُها إلى العَلَن، وأبدَيْتُها له.. لمْ أستَطِع أنْ أُدِير إليه وجهي، لأرى الانطباع الذي ارتسَمَ على وجهه، واللَّهفةَ المشُوبةَ بالانبهار التي أخذَت تتقافز في عينَيه وهو يُحَدِّق فيها، لمْ أرَ ذلك، ولكنَّني أعرف أنَّه يحدُث.

كِدْتُ أُعِيدُ يدِي إلى جَيْبِي لأُسْلِم كُرَتِي الغالية إلى مَكمَنِها ومأمَنِها، حتَّى أحسَسْتُ بيَدٍ تصطدِم بيَدِي، وسمِعْتُ «موجابي» يقول: «دعني ألمَسُها»، هنا رأيتُ الكُرَةَ تطير في الهواء، مارَّةً أمام وجهي، لتستقِرَّ على بُعْدِ خُطوتَين مِنِّي..

أحسَسْتُ لوَهْلَةٍ بأنَّ الزمان قد توقَّف، وأنَّ الدنيا أمسَتْ تدور ببطيء مِن حَوْلِي، كانت المشاهدُ ثابتةً وكأنَّ الدَّهرَ قد أمرَها بالجُمود فسَكَنَتْ، وأطبَقَ الصمتُ على الأحياء، فخَفَتَتْ أصواتُهم حدَّ الخَرَس، زاغ البصرُ مِنِّي، وتراقَصَتْ الرُّؤَى.. لم أسمع «موجابي» حينهَا وهو يقول: «آسف، لم أقصد، كُنْتُ فقط أوَدُّ اللعب بها قليلًا»، تسارعَتْ أنفاسي، يُطاردُ بعضُها بعضًا، حتَّى اختلَطَ الشَّهيقُ بالزَّفِير، فكِدْتُ أختَنِق، وعلَا صوتُ ضربات قَلْبِي كطُبُول «الماساي» وقتَ الحرب، فدَوَّى صَوتُها في رأسي، فأفاقَنِي مِن ذُهُولي، الذي يبدو أنَّه طالَ..

كانت كُرَتِي الغالية تستقِرُّ هناك، على الثَّرَى، بعيدًا عن خِبْئِها في جيبِيَ الآمِن، لا أدْري، أجَزِعْتُ عليها أم على نَفْسِي؟ أخَشِيتُ أنْ يلحَقُ بها أذًى أم خَشِيتُ أنْ يلحَقَ بِي من بعدِها؟!.. أهكذَا يمكنُ للحياة أنْ تنتَهِيَ في لحظَةٍ، وللأمَلِ أنْ يتلاَشَى ويُمْسِي سرَابًا في طرفَةِ عَيْن؟! أتَكُون البهجَةُ في أيدِينا لثانِيَةٍ، ثمَّ تُنْتَزَعُ مِنَّا في التي تَلِيها؟!..

كان أحدُ جنود الجِنِرال يمشي أمامنا رائحًا غاديًا، يمُرُّ بجوار الكُرَةِ ومِن أمامِها وَمِنْ خلفِها، يكادُ يطَؤهَا بحِذَائه الضَّخْم، فيَسْحقها ويُفْرِغُ

هواءَ الحياةِ منها.. كانَتْ عيناي - وإنْ كانَتْ في رأسِي- مُعَلَّقَةً بالكُرَةِ وكأنَّها تعبُدُها رغبَةً وحُبًّا، وكذَا بالحِذَاءِ وكأنَّها تعبُدُه رهبَةً وبُغضًا.. كان قلبي يكاد ينخَلِع وتتوقَّف أنفاسي حين يمُرُّ أحدُ الجنود قريبًا منها، وأتنَفَّسُ الصُّعَداء حين يَمْضِي مبتعدًا عنها تاركًا إيَّاها سالِمَةً على الثَّرى..

التَفَتُّ إلى «موجابي» بكُلِّيَّتِي لأوَّل مرَّةٍ غير عابئًا برِجال الجِنِرال المُدَجَّجِين بالسِّلَاح، في غَضَبٍ قائلًا: «هل يمكِنُك الآن أنْ تذهبَ وتُحْضِر لي كُرَتِي كَما أذهَبتَها بعيدًا؟»، انكَمَشَ «موجابي» في نفسه، وقال هامِسًا كالمُعتَذِر: «آسف يا «دامومبو»، لم أقصِد ذلك، ولكن أيضًا لا أستطيع الذهاب، ألا تري أولئك الجنود، سيرسلونني إلى جهَنَّم أو يقتلونَنِي قبلها، دعها وسنُحْضِرُها بعد انتهاء الاحتفال»، ثمَّ عادَ إلى انكماشه منهيًا أمَلِي في ذهابِه..

خَطَر لي أن ألجَأَ إلى المُعَلِّمِ «بورجا»، علَّهُ يحضِرُها لي، فهو ذو حظوَةٍ على كُلِّ حال، على الرُّغم من تلك الصفعات والركلات التي تلَقَّاها سَلَفًا وتلك الشَّتائم التي يتلقَّاها دائمًا من الجِنِرال ورجاله.. دُرْتُ

بِعَيْنَيَّ وسط الجُموع أبحَثُ عنه، بحَثْتُ طويلًا حتَّى رأيتُه جالسًا على الأرضِ في آخِرِ الصفوف، مُنْكَمِشًا، مُتكَوِّرًا على نفسِهِ، عيناه زائغَتَان، تدوران في مِحْجَرَيْهِما كالمَجنُونَة، بدَا وكأنَّه ملبوسٌ يُوشِكُ على الجُنون، أو كأنَّه يَوَدُّ لو أنَّ الأرضَ ابتَلَعَتْهُ وخبَّأتْهُ في باطِنِها، بعيدًا عن أعيُنِ الرُّقَبَاءِ.. قد أُخبِرُ الأبَ «ماندينكا» بشأنِه لاحِقًا إذا ما سارَت الأمُورُ اليومَ على ما يُرَام..

تفَكَّرْتُ بُرْهةً، وقُلْتُ في نفسي: «ماذا عن المُحْتَرَم «ريموني»، باستطاعته إحضارها لي بلا شكٍّ، فهو رجُلٌ ذو مكانَةٍ مشهودة، نعم، لمْ يمنَع هذا الجِنِرال ورجاله في إهانَتِه وسَبِّه والصراخ في وجهه مِن وقتٍ لآخر، ولكنَّهم أيضًا لم يكُونوا ليفعلوا به أكثر من ذلك».. تفَحَّصْتُ الوجوه الواقفةَ أمام الجُمُوع المُحْتَبِيَةِ، فرأيتُه واقفًا إلى جَانِب الجِنِرال «تاموري»، ذاك الجالسُ، وكأنَّه على كُرْسِيِّ العَرشِ، كان واقفًا في خُشُوعٍ وسكينة، كعَمُودِ الخَيْمَةِ، لا يتَحَرَّكُ فيه سوَى قلبُه، ولو أنَّه ظَنَّ أنَّ صوتَ ضربات قَلْبه تُزْعِجُ الجِنِرال لأسكَتَه في الحال، ولطَعَنَه طعنَةً نجلَاء تُرِيحُ قلبَ الجِنِرال وقلبَه.. كانتْ عيناه مُسَدَّدَةً إلى الأرضِ أمامَه،

وأُذُنَاه منتصِبَتيْن، قد أوقَفَهُما على تَلَقُّفِ أوامِرِ الجِنِرال، لكي يُبادِر إلى تنفيذ ما يلْفِظُ به.. أهذَا هُو الذي يُعِيدُ إلَيَّ كُرَتِي؟! لو أنَّ له كُرَاتٍ عند الجِنِرَال لما استطاعَ أن يستعِيدَها، إنَّه يبدو حكيمًا فقط حين يُوَجِّهَ إلَيْنا كلماتِه المُنَمَّقَة الجَمِيلَة الدافِئَة، أمَّا في مُواجَهَة الجِنِرَال فإنَّه لا يرَى ولا يَسمع ولا يتكَلَّم، بل إنَّنِي إنْ أخبَرْتُه عن كُرَتِي الغالية، فقد يُسْلِمُها للجِنِرال بنفسه؛ يبتغِي إليه الوسيلة..

سافَرْتُ في وُجوه الجالسِين، عسى أنْ أجد مِن بينِهِم مَن يستطيع مساعدتي في محنَتِي تلك، كانُوا جمِيعهم كالمُعَلِّم «بورجا»، خائفين مُنْكَسِرين، قد ألجؤوا أدبارَهم إلى الأرضِ في وَجَلٍ ورَهْبة، كانُوا وكأنَّهم يحتفلون بعِيدِ الحُرِّيَّة قسْرًا، لَم يكُن أحدٌ منهم قطُّ حُرًّا في تلك اللحظة، كانَت لحظةً قاسيةً، تجَلَّتْ فيها الحقيقة، وبَدَتْ سافِرَةً قد كَشَفَتْ عن وجهِها القبيح، لم يكُن للحُرِّيَّة يومًا مَوطِئَ قَدَمٍ في تلك البلاد، شعارات زائفة طالمَا تغَنَّى بها الجَمِيع، بعضُهُم مثلي لا يتمَتَّعُون بها، وآخَرُون كالجِنِرال ورجاله لا يأذَنُون فيها، وآخَرُون كالمُحتَرَم «ريموني» لا يتَلَبَّس بها إلَّا بينَنَا، فإذا ما مَثُلَ أمَام الجِنِرال أو أحد رجالاته فيصِير حاله إلى

مثل تلك التي هو عليها الآن..

ما العَمَلُ الآن؟ ما عَلَيَّ أنْ أصنَع؟ لم أكُن لِأدَع كُرَتي الغالية هكذا طريحةَ الثَّرى بعيدةً عن مَأْمَنِها، وأدَع قلبي مفجوعًا بها، يرى أغلى ما في حياته يضيع أمام ناظِرَيْه ولا ينتَفِض، أتُسْتَجْدَى الحُقُوق؟! أتُتمَنَّى المَطَالِبُ؟! أم يظَلُّ أهلُها هكذَا قاعدِين في خَوْفٍ ورهبَةٍ لا يطَالِبُون بها إلَّا بقلوبهم حتَّى تضيع من بَيْن أيدِيهم، فيندَمُون حينها، حينَ لا يَنفَع النَّدَم؟!!..

قلَّبْتُ الأُمُورَ على وُجُوهِها، فتَكَشَّفَتْ لي، وتَجَلَّت الحقيقة أمامِي، وأدرَكْتُ مقامِي ومَقامَ هؤلاء الجالِسِين على الثَّرَى، وأولئكَ الواقِفِين على رؤوسِنا بأسلِحَتِهم، هذه الحقوق وتلك الحُرِّيَّة لَن تنتظِرَنا لكَي نأخذها، وهذه الكُرَة لن تقفز إلَيَّ عائدةً مِن تلقاء نفسها.. أدرَكْتُ أنَّه لا بُدَّ لي مِن أن أُقَاتِل مِن أجلِها، فهِيَ لي بمثَابَةِ الأملِ الذي يُبْقِينِي، والبهجَة التي تُسْلِمُنِي مِن اليومِ إلى قابِلٍ..

ألقَيْتُ نظرَةً أخيرَةً على الجُموع الجالِسَةِ، واخْتَصَصْتُ المُعَلِّم «بورجا» بواحِدَةٍ، ثمَّ رمَيْتُ الجِنرال ورجالاته بأخرَى، ثمَّ ارتَحَلْتُ

بالنَّظَرات حتَّى حَلَّتْ على كُرَتِي الغالية، وقُمْتُ إليهَا مادًّا يَدِي، أسْتَرِقُ النَّظَرَ إلى حذَاءٍ كبيرٍ وسِلاحٍ مخيفٍ قد يُنْهِي مسيرَةَ نضالِي في لحظَةٍ، ولكِنَّنِي لَم أعُد أعبأُ بتلك المُعَوِّقات بعدُ.. تلك هِيَ كُرَتِي، وسأستعِيدُها.. حتَّى وإنْ منَعُونِي حَبَّةَ البَطاطَا الحُلْوَة..

تمَّتْ

د. محمد عبد اللطيف

١٥ ربيع الأوَّل، ١٤٤٢هـ

٢ تشرين الثاني، ٢٠٢٠م

حَوْلَ الصُّورة

أُلْتُقِطَتْ تلك الصُّورة الصَّادِمة بواسطة المُصَوِّر الإنجليزيّ «جوناثان بانكس»، لطفل لَيْبيرِيّ يحاول أن يستعيد كُرَتَه، حيث يظهر الطفل في ظِلِّ جنديٍّ مُسَلَّح.. وقد تمَّ اختيار تلك الصورة لتكون الفائزة في «جائزة سِيِّنَّا للتصوير الفوتوغرافي»، في دورتها الخامسة في عام ٢٠١٩م.. وقد التقط «جوناثان» هذه الصورة في مدينة «مونروفيا» بـ ليبِيريا.

وحين سُئِلَ «بانكس»: «كيف تأتَّى لك التقاط هذه الصورة؟ وما هي القصَّةُ خلفها؟»، أجاب قائلًا: «لقد طُلِبَ مِنِّي أنْ أُوَثِّق مهرجان الثقافة والسَّلام اللَّيْبِيريّ السنويّ الرابع، والذي كانت مُنَظَّمة «انترناشيونال أليرت» التي أعمل لدَيْها تساعد في تنظيمه. لقد عانَت ليبِيريا من الحرب الأهليَّة لأعوام عديدة، وقد ساهم هذا المهرجان في تجميع المواطنين من العِرْقِيَّات المُختلفة معًا، مُمِدًّا إياهم بفرصة رائعة للاحتفال باختلافاتهم الثقافية، التي يجب أن تكون مصدرَ قوَّةٍ لهم.

كما في أيِّ حدَثٍ، قمتُ بملاحظة ماذا يحدُث، بينما أقوم بتحديد الطريقةَ المُثْلَى التي يمكن من خلالها توثيق الحدَث. لقد قمتُ بمراجعة سلسلة الصور التي التقَطْتُها لأعرف كيف وصلْتُ إلى التقاط هذه الصورة. أنا عادةً أقوم بإغراق نفسي في الأحداث الماثلة أمامي؛ لكي أستطيع أنْ ألتقطَ اللحظة التي لا أُعِير غيرها انتباهًا.

كنتُ حينها أقوم بتسليط الكاميرا على هذا الجُندِي بالذات، حينما شَعَرْتُ بأنَّ هناك شيئًا ما يحدث في الخلف، وفجأة خرج من الزحام طفلٌ يحاول الوصول إلى كُرَتِه الغالية. هذا هو طفلٌ نشأ في ظلِّ أجواء الحرب، ولديه سببٌ واضحٌ لكي يكون خائفًا هكذا من الجنود وأسلحتِهم. لقد أراد أن يستعيد كُرَتَه فقط، ولكنَّ عينَيْه كانتَا مُثَبَّتَتَيْن على الجُندِيّ. حدَثَ هذا كلُّه في طرفة عَيْن، ونتج عنها تلك الصورة، والتي تُوَضِّحُ مدى هشاشة عمليَّة السلام، كما يبدو جَلِيًّا في نظرات الطفل الصغير، على الرُّغم من إدراكه الضعيف لآليَّات الصراع الكبيرة التي تأخذُ مكانها على السَّاحة. كلُّ ما عَرِفَه هذا الطفل أنَّه يريد استعادة كُرَتِه مُجَدَّدًا، ولكن أيضًا، أنْ يبقَى آمِنًا»..